

المؤتمر العالمي الثاني لبديع الزمان سعيد النورسي
"بديع الزمان سعيد النورسي واعادة بناء العالم الاسلامي في القرن العشرين"
27 - 29 ايلول 1992 استانبول - تركيا

سعيد النورسي: الرجل والدور

احمد بهجت *

في الدنيا ناس كثيرون يلعنون الظلام.. ولكن.. ما اشد ندرة القادرين على اضاءة شمعة
وتبديد الظلام..

ولقد كان الصوفي التركي المجاهد المجدد سعيد النورسي واحدا من هؤلاء القادرين
النادرين..

لقد اختار رسائل النور اسما لمباحثه

كان يدرك اهمية النور في حياة البشر... وكان يعرف ان النور الخارجي اذا كان لازما
لحركة البشر، فان النور الداخلى لازم لحركة الضمير الانساني والفؤاد.. وبغير هذا النور الداخلى
لا يهتدى الانسان لدوره على الارض، ولا يعرف له ربا في السماء..

ولد سعيد النورسي في قرية نورس احدى قرى خيزان التابعة لولاية بتليس شرق الاناضول
سنة 1873 ميلادية.. وكان ابوه صوفياً ورعاً يضرب به المثل في الامانة..

وكان الاب اذا عاد بمواشيه من المرعى ربط افواهها لكي لا تأكل شيئاً من مزارع
الآخرين..

واتجه الابن الى العلوم الدينية والمدنية ونبع فيهما معاً واشتهر بذكائه واخلاصه.. وقد ولد
سعيد النورسي في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، اى في اواخر عمر الدولة العثمانية الآيلة
للسقوط، وعاصر تكالب الاعداء وتزاحمهم للقضاء على هذه الدولة..

كان الحقد الاسود على الاسلام يحركهم، وكان شخص دولة الخلافة هو الرمز الذى وجهت
اليه سهام الحقد المسموم..

ورغم ما بذله السلطان عبد الحميد ليبقي دولة الاسلام على قدميها خلال 33 سنة، الا ان المؤامرة كانت احكم من ان تترك دولة الخلافة تحيا، وكان اعوان الغرب والدوائر الاجنبية قد زرعوا عملاءهم باحكام في قلب الدولة، وكان كل شئ مهياً لاسقاط رجل أوروبا المريض، وهو الاسم الذى اطلقه الغرب على السلطان عبد الحميد ودولة الخلافة التى يمثلها ويرمز اليها.. ولم يستطع السلطان رغم نيته الطيبة ان يحول دون وقوع المؤامرة وسقوط دولة الخلافة.. او يحفظ اسمه من التشويه الذى شوهته له دعاية الغرب. ومن هذا الجو الدرامى المشحون ولد سعيد النورسى فحمل هموم الامة وساهم في تنويرها.

كان الوعى لاينقص سعيد النورسى، كما كانت الشجاعة صفة من صفاته النادرة التى التصقت بشخصيته وصارت جزءاً متمماً لشخصيته..

من دلائل وعيه وشجاعته ما كان من أمره مع العريضة التى قدمها للسلطان عبد الحميد، وهى عريضة طالب فيها بفتح المدارس التى تعلم العلوم الرياضية والطبيعية والكمياء، الى جوار المدارس الدينية في شرق الاناضول، حيث يخيم الجهل والفقر على سكانه..

وقد اعجب السلطان بوعيه واستدعاه، وخلال هذا اللقاء انتقد سعيد النورسى نظام الأمن والاستخبارات بقصر يلذر حيث كان يعيش السلطان، الأمر الذى أثار نقمة حاشية السلطان التى لا تمثل فكرة السلطان فحولوه الى محكمة عسكرية..

وفي هذه المحكمة تكلم بجرأة كبيرة، وتحدث عن السلطان بوصفه السلطان المظلوم، وكان قصده انه مظلوم لان حاشيته وكثير من معاونيه لا يفهمونه ولا يحاولون خدمته بل ويخربون افكاره... وأحالته المحكمة إلى الأطباء الذين أحالوه بدورهم إلى مستشفى طوب طاش للمجانين، ثم افرج عنه بعد ان ثبت انه اعقل من أطبائه وسجانيه ، واستدعاه وزير الداخلية ودار بينهما هذا الحديث:

قال الوزير: ان السلطان يخصك بالسلام، مع مرتب ألف قرش "عشر جنيهات"

بديع الزمان: لم اكن ابداً متسول مرتب.. ولن اقبله ولو كان ألف ليرة، انتم تعرضون عليّ رشوة لأصمت.. ولن أصمت.

قال وزير الداخلية: انك بهذا ترد الارادة السلطانية، والارادة لاترد.

قال بديع الزمان: إنني أرد لكي يستاء السلطان ويستدعىنى، وعندئذ أقول له قولة الحق..

قال الوزير: ان العاقبة لن تكون سارة.

قال بديع الزمان: تعددت الاسباب والموت واحد.. لئن أعدمتم فسوف ارقد في قلب الامة، اننى اريد ان اوقف ابناء الامة، وانا افعل ذلك بوصفى فرداً من هذا البلد، وليس قصدي إن اقتطف من ورائه مرتباً.. اننى معذور عندما ارفض المرتب .

قال وزير الداخلية: ان ما ترمى اليه من نشر المعارف في بلدك هو موضع دراسته في مجلس الوزراء حالياً.

قال بديع الزمان: اذن لماذا يتأخر نشر المعارف، ويستعجل في امر المرتب، لماذا تؤثر منفعتى الشخصية على المنفعة العامة للامة؟

حين كان سعيد النورسى في الثلاثين من عمره، زار استانبول في هذه الفترة "الشيخ بخيت المطيعى" مفتى الديار المصرى.. و اراد علماء استانبول الذين عجزوا عن الزام النورسى بحجتهم، ان يقابل الشيخ هذا الشاب التركى الذى اعياهم قياده..

وقد حدث اللقاء، وكان السؤال الذى وجهه الشيخ المطيعى هو التالى:

- ما رأيك في الحرية الموجودة الآن في الدولة العثمانية، وماذا تقول في مدينة اوربا..

قال سعيد النورسى: الدولة العثمانية حبلى حالياً بجنين اوربا وستلد يوماً ما، اما اوربا فهى الاخرى حبلى بجنين الاسلام وستلد يوماً ما. وامام هذا الجواب الموجز العميق قال الشيخ بخيت:

- اننى اوافق على كلامه، وانا احمل هذا الرأى نفسه.. ولا معنى للمناظرة مع هذا الشاب..

والحق ان بديع الزمان سعيد النورسى عاش حياة صعبة، فالى جوار عطائه في الدروس وجهده الذى كان يبذله فيه، فقد ظل طوال حياته هدفاً لمطاردة السلطة، او هدفاً لمحاكمات عديدة.. وحكم عليه بالاعدام اكثر من مرة، وكانت عناية الله تعالى تتقذه في اللحظات الاخيرة..

ولم يكن النورسى يتردد في قول الحق حتى في أخرج الظروف..

كان خورشيد باشا الحاكم العسكرى يحاكمه بتهمة عقوبتها الشنق... قال له:

- انت ايضاً تدعو الى تطبيق الشريعة.. الاتعرف ان من يطالب بهذا يشنق..

وقف النورسى وقال للمحكمة كلاماً ختمه بقوله:

- لو ان لى الف روح لما ترددت ان اجعلها فداء لحقيقة واحدة من حقائق الاسلام.. لقد

كانت هذه الحكومة تخاصم العقل ايام الاستبداد، اما الآن فانها تعادى الحياة ذاتها، وما دامت الحكومة هكذا فليعش الجنون وليحيا الموت وللظالمين عاشت جهنم..

ولقد كانت حياته سلسلة من المحاكمات والنفي والابعاد وتحديد الإقامة.. وكانت جريمته الواحدة التي حوكم عنها عشرات المرات انه رجل يدعو الى الله، ويدعو الى ان يكون الاسلام حاكماً في قلوب الناس، وان تكون شريعته قانوناً مطبقاً في الحياة...

ولقد كان هذا الحق الطبيعي في هذه السنوات هو اخطر تهمة يمكن ان توجه لانسان بعد ولاية مصطفى كمال اتاتورك..

وفي هذه السنوات الحالكة في حياة تركيا، الغيت الخلافة، والغيت قوانين الشريعة واستبدلت بالقوانين الاجنبية. والغيت الحروف العربية واستخدمت بدلاً منها الحروف الاتينية - حتى يفصل النظام بين الناس ومنابع شريعتهم في لغتها العربية - وتحول الاذان من اللغة العربية الى اللغة التركية، واصبح محرماً على الناس ارتداء ملابس الشيوخ، وتم قهر الناس على لبس الملابس الافرنجية بالقبعة.. واعلنت علمانية الدولة.. وبدأ اضطهاد المشايخ ورجال الدين، واصبح الامر بالرغبة في تطبيق الشريعة الاسلامية جريمة كبرى تتصل بأمن الدولة العليا ولها عقوبتها وهي الشنق.

في هذا الجو المسموم تم حذف دروس الدين من المدارس، كما حذفت كلمات الخالق.. والرب.. والله جل جلاله من كتب المدارس، ووضعت بدلاً منها كلمات الطبيعة والتطور والوطنية والقومية..

كان الهدف هو محو مفهوم الاله ومحو فكرة الخالق من الازهان، واصبحت النظرة الى المتدينين تعتبرهم جماعة من الافاقيين الذين يصدقون في وجود شئ وراء الطبيعة..

سنة 1932 نشرت في استانبول بتركيا دائرة معارف الحياة، ماذا كتبت دائرة المعارف هذه - او بمعنى اصح دائرة الجهالات - تحت كلمة لفظ الجلالة "الله" ..

كتبت دائرة المعارف التركية في عهد العلمانية تقول "ان الفكرة التي تريد الاديان الموجودة حالياً ان تبنيها هي ان الله واحد، وانه هو الذى خلق الكون، ولكن التقدم العلمى بدأ يوضح لنا شيئاً فشيئاً ان هذه الفكرة باطلة، وانه لاوجود لشئ اسمه "الله"، وقد انتشرت فكرة عدم الاعتقاد بالله بين اوساط المتقنين" .. هذا ما كتبتته دائرة المعارف التركية..

في هذا الجو الكئيب كان الاسلام يتعرض لحرب علنية تشنها الحكومة بكل اجهزتها.. وفي هذه السنوات الحالكة السواد، اشعل سعيد النورسي شمعة لتبديد الظلام، وقال في تقديم نفسه "اننى لست شيخ طريقة، فالوقت الان ليس وقت طرق صوفية، بل وقت انقاذ الايمان". لقد كان انقاذ الايمان هو القضية التي لا تتحمل التأجيل لحظة واحدة.

بدأ سعيد النورسي كفاحه من اجل انقاذ الايمان.. ومر في كفاحه باكثر من مرحلة كما يحدثنا هو نفسه في كتاباته..

في المرحلة الاولى حاول خدمة الاسلام عن طريق الخوض في غمار السياسة..

كان يسبح ضد التيار ويحاول صد التيارات المعادية للاسلام عن طريق العمل السياسى، قابل السلطان عبد الحميد ونصحه، وكتب المقالات السياسية في جريدة وولقان، وحاول التأثير في رجال الاتحاد والترقى لدفعهم الى الجانب الاسلامى، وحاول في انقرة التأثير في اعضاء مجلس النواب وتقوية الجانب السياسى فيهم، وتعرض للقبض والتحقيق والمحاكمة اكثر من مرة..

ثم ادرك بذكائه وحكمته استحالة خدمة الاسلام بالدخول في معترك السياسة ودهاليزها وصراعاتها العقيمة..

لقد اغلقت المدارس الدينية وتحولت مئات المساجد الى مخازن او اسطبلات او مراكز للشباب.. وهكذا اطلق سعيد النورسي الحياة السياسية وقال كلمته الشهيرة في ذلك "اعوذ بالله من الشيطان والسياسة".

وقد لاحظ سعيد النورسي خلال خوضه غمار العمل السياسى انه في حاجة الى استخدام الادوات المتاحة، وهم البشر، وكان هؤلاء البشر على قدر من الانتهازية. كما كان ايمانهم ناقصاً، وتساءل سعيد بينه وبين نفسه هل يمكن خدمة الاسلام باناس لا يملكون ايماناً كاملاً، هل يمكن خدمة الاسلام بنفوس لم تعرف الاسلام جيداً ولم تتشرب به..

الا يكون ذلك اكبر تشويه لصورة الاسلام واكبر اذى يمكن الحاقه به..

ان هذا ما يريده الغرب المتربص بالاسلام..

بهذه النظرة العميقة والمتأنية، وبعيداً عن الحماس والارتجال، ادار ظهره لعالم السياسة، وكتب يقول عن نفسه "لقد خاض سعيد القديم غمار السياسة ما يزيد على عشر سنوات، لعله يخدم الدين والعلم عن طريقها، ولكن محاولته ذهبت ادراج الرياح..

لماذا.. لان اغلب السياسة خداع واكاذيب، وهناك احتمال ان يكون الشخص آلة بيد الاجنبي دون ان يشعر، ومضى سعيد النورسى يعدد اسباب تركه للعمل السياسى وختم كتابته بقوله.. لاجل هذا كله فان سعيداً القديم قد ترك السياسة ومجالسها الدنيوية كما ترك السجارة وقراءة الجرائد.

صرف سعيد النورسى همه لاملء رسائل النور على تلاميذه ومحبيه..

كانت الرسائل في جوهرها محاوله ناجحة للدعوة الى الله، عن طريق ايقاظ القلب وتنويره بالاسلام..

وتبدو رسائل النور رسائل عادية لشرح مفاهيم الاسلام، والدعوة الى الله، ولكنها في حقيقتها تفسير قيم للقرآن الكريم، وهو تفسير تجتمع له خصائص لا تجتمع لغيره من التفسير.. اهمها ان القرآن الكريم كان هو وحده استاذ النورسى ومرشده، فلم يغادره الى كتاب آخر، ولم يتخذ غيره مصدراً.

ولقد قيل: كيف تعتبر رسائل النور تفسيراً للقرآن الكريم مع انها لا تشبه التفسير المتداولة؟

ان الجواب على هذا السؤال: ان التفسير نوعان:

الاول: هو تفسير اللفظ والعبارة والجملة في الآية الكريمة.

الثاني: هو اثبات الحقائق الايمانية للقرآن الكريم اثباتاً مدعماً بالحجج والبراهين.. ولقد كان تفسير النورسى من النوع الثانى.

ان القرآن الكريم بحر لا تنتهى كنوزه.. ان لكل تفسير عصره، وكل عصر يقدم تفسيره طبقاً لعلوم العصر واكتشافاته ورحابة معرفته..

ان الله تبارك وتعالى يقول فلا أقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم.

ان فهم القدماء وتفسيرهم لهذه الآية، لايشبه فهم المحدثين لها. ان فهم المحدثين

والمعاصرين اعمق.. لقد كشف التقدم في علم الفلك ان الشعاع الضوئى لبعض النجوم يستغرق اربعة الاف سنة ضوئية لى يصل الى الارض، وهذا يعنى ان الشعاع سوف يسير بسرعة 300 الف كليومتر في الثانية لمدة اربعة الاف سنة.

هنا نفهم عظمة القسَم الالهي بمواقع النجوم.. وهنا يتضح معنى الآية عند المعاصرين اكثر
من اتضاحه عند القدماء...

وهكذا عكف سعيد النورسي على املاء رسائل النور، واستمر في مهمته حتى دخل في
المرحلة الثالثة من نشاطه حين بدأ تدريسه الجماعي لرسائل النور.. اضافة الى قيامه بنصح
السياسيين ورجال الحكم باتباع الاسلام، دون ان يدخل بنفسه في معترك السياسة.

* * *

في العشرينات من هذا القرن..

نشبت ثورة في الاقاليم الشرقية في تركيا بقيادة الشيخ سعيد بيران، وكان هذا زعيماً بارزاً
في العشائر الكردية..

وكانت هذه الثورة موجهة ضد سياسة مصطفى كمال اتاتورك الذي اثار نقمة الشعب ضده
بسبب موقفه المعادي للاسلام..

وقبيل اندلاع الثورة ارسل الشيخ سعيد بيران رسائل الى الاستاذ سعيد النورسي يطلب منه
الاشترك معه في الثورة ضد حكومة انقرة، فرفض لعدم رغبته في اراقة دم المسلمين الابرياء
في حركة لا امل فيها.. وجرى بينه وبين حسين باشا رئيس احدى العشائر الكردية هذا الحوار:
حسين باشا: اريد ان استشيرك في امر، ان جنودي حاضرون والخيول موجودة وكذلك
الاسلحة والذخائر..وانا انتظر امراً منكم.

سعيد النورسي: ماذا تقول.. ومن ستحارب؟

حسين باشا: سنحارب مصطفى كمال

سعيد النورسي: من هم جنود مصطفى كمال؟

حسين باشا: ماذا اقول.. انهم جنود!!

سعيد النورسي: ان جنوده مسلمون من ابناء هذا الوطن، هم اقرباؤك واقربائى، من
تقتل..ومن يقتلون.. فكر وافهم.. انك تريد ان يقتل الاخ المسلم اخاه المسلم.

حسين باشا: الموت افضل من هذه الحياة...

سعيد النورسي: وما ذنب الحياة.. اذا كنت قد مللت حياتك، فما هو ذنب المسلمين

المساكين؟

حسين باشا: "حائراً" لقد أفسدت عزيمتى ورغبتى، كيف اقابل عشيرتى التى تنتظر عودتى.. ماذا يكون رأيهم فى، انهم سيظنون اننى جنت.. لقد ضعيت قيمتى بين عشيرتى. سعيد النورسى: لاىهم ان تكون قيمتك صفرأ عند الناس، مادمت مقبولأ عند الله تعالى

حسين باشا: نحن نريد تطبيق الشريعة الاسلامية

سعيد النورسى: اتريد تطبيق الشريعة الاسلامية؟ ان تطبيق الشريعة لاىكون بهذه

الطريقة...

لم يكن سعيد النورسى يرغب فى عدم اراقة دم المسلمين فحسب، وانما ايضأ كان لايقب بهؤلاء الاشخاص ومدى وعيهم الاسلامى ومدى قدرتهم على تمثيل الاسلام..

ولهذا السبب الجوهري ورد فى حوار ه مع حسين باشا قوله:

- يا حسين باشا.. لو قلت لك تعال مع جنودك الثلاثمائة لتطبيق الشريعة، فان جنودك وهم طريقهم الى هنا، سيقومون بنهب وسلب وقتل كل من يمرون عليه فى الطريق، وهذا مخالف للشريعة، كيف تطبقون الشريعة عن طريق مخالفتها.

* * *

كان وعى سعيد النورسى بالعدل عميقأ، ومن هنا كان وعيه بالاسلام عميقأ... لم يكن على استعداد لان يظلم تحت اى شعار من شعارات الانصاف او العدل، كان يريد ان يكون شعاره منطبقأ مع أفعاله، وان تكون اقواله هى الترجمة الفعلية لافعاله..

ورغم رفضه الاشتراك فى حركة الشيخ سعيد بيران، واقناعه رؤساء العشائر الكردية بعدم الاشتراك فى قتال جنود مصطفى كمال، رغم ذلك لم يسلم موقفه هذا من غضب حكومة انقرة.. وهكذا ارسلا اليه مجموعة من الجنود والضباط لاعتقاله.. ومن هناك نقل الى استانبول.. ثم عاد ينقل الى مدينة بوردور.. ثم الى مدينة اسبارطة. واستغل الاستاذ سعيد النورسى هذه الفترة فى تأليف رسائل النور.. وهى رسائل كانت تستنسخ باليد، ويتداولها الطلاب والمحبون، وتنتشر وسط الناس انتشار النار فى الهشيم..

وبعد ان كانت الحكومة تتبعه وحده.. بدأت تطارده وتطارده معه رسائل النور.. حدث هذا

في حياته وبعد وفاته..

استمرت مطاردة رسائل النور، واصبح من المشاهد المتكررة والمألوفة مشاهد المحاكمات التي تقيمها الدولة لطلاب رسائل النور على اختلاف نوعياتهم وتخصصاتهم. وعبثاً حاولت الحكومات المتعاقبة ان تطفى هذه الشعلة التي اشعلها سعيد النورسى واستمدها من القرآن الكريم.

في صباح يوم 23 مارس سنة 1960، الموافق للخامس والعشرين من ايام شهر رمضان سنة 1379.. لم ينهض الاستاذ سعيد النورسى لصلاة الفجر، وكشف تلاميذه الغطاء عن وجهه ليعرفوا الحقيقة..

لقد انتقل الاستاذ الى الرفيق الاعلى..

كان الاستاذ في أورفة..

وانتشر الخبر فيها فتجمهر الناس آلافاً حول الفندق الذى يسكن فيه، وبدأ سيل من وفود المعزين يتقاطر على المدينة..

وانهمر المطر رذاذاً وهم يشيعون الاستاذ الى مثواه الاخير في مقبرة "أولو جامع" ..

لم يكن هذا المثلوى هو المثلوى الاخير، فبعد شهرين من وفاته، وقع انقلاب عسكري اطاح بالحزب الديمقراطى وسيق اعضاء الحكومة الى المحكمة التي سميت بمحكمة الدستور، واعدمت هذه المحكمة رئيس الوزراء عدنان مندريس واثنين من وزرائه، وحكمت على الباقيين بالمؤبد والسجن.. وبدأت الحكومة الجديدة في مطاردة التيارات الاسلامية في تركيا ومنها حركة طلاب النور..

بعد مرور خمسة اشهر على وفاة سعيد النورسى، استدعى شقيق الاستاذ الى الوالى حيث خاطبه الجنرال جمال تورال قائلاً:

- ان زواراً عديدين يأتون لزيارة قبر شقيقكم، ولما كنا نعيش في ظروف دقيقة، رأينا ان ننقل رفات شقيقكم - بمعاونتكم طبعاً - الى مكان آخر.. نرجو ان توقع هذه الورقة.

رفض شقيقه في البداية، ولكنهم اجبروه على توقيع الورقة، واتجهوا نحو طائرة عسكرية الى قبره..

وهناك حفروا قبره، واخرجوا جثمانه ووضعوه في تابوت، وحملوا التابوت الى طائرة عسكرية ذهبت به الى مدينة اسبارطة، وهناك دفنوه في مكان لا يعرفه احد..

هذه قصة مجاهد مسلم عاش 28 عاماً من عمره في السجون والمنفى، ولكنه استطاع وحده - بتوفيق من الله وفضل - ان يهز تركيا من ادناها الى اقصاها وان ينطلق خارجها، وان يقذف الرعب في قلوب اعداء الاسلام، وان يحمل بيده شعلة من النور في عصرنا، وان يترك مدرسة تحمل النور وتبدد به ظلام الحياة.

* احمد بهجت: أحد من نجوم الصحافة المصرية والعربية، وكاتب له اتجاهه الاسلامي. يعمل نائباً لرئيس تحرير جريدة الأهرام القاهرية، وله عمود يومي شهير اسمه صندوق الدنيا، وهو عمود يقرأه يومياً مليون قارئ.. هو عدد قراء الجريدة. كتب 35 كتاباً منها ما هو إسلامي بحث ومنها ما هو نقد اجتماعي ومنها ما هو ادبي ساخر وقد ترجمت له 4 كتب إلى اللغات الإنكليزية والفرنسية والهندية والصربو الكرواتيه.